الفصل 1

كان الضوء في محطة الفضاء «أحمس» أبيض دائمًا، بلا ظلال حقيقية، كأنه ضوء مستشفى لا ينام.

مدحت سالم وقف أمام النافذة الكبيرة التي تطل على الجانب المظلم من الأرض. لم يكن يرى المدن، بل خطوطًا باهتة من الأنوار تتلوى كأوردة مضيئة تحت الغلاف الجوي. منذ ثلاث سنوات وهو يعمل هنا مهندس أنظمة طاقة، ومنذ ثلاث سنوات وهو ينتظر أن يشعر بأن هذا المكان «بيت». لم يحدث.

الصداع النصفي عاد هذا الصباح مبكرًا. ضغط خفيف فوق العين اليسرى، ثم امتد كسلك ساخن إلى خلف الرأس. اعتاد أن يستخدمه. كلما اشتد الألم، كان الناس يتركونه وشأنه. الزملاء يقولون «مدحت مريض اليوم»، فيبتعدون. الزوجة كانت تقول الشيء نفسه، لكن بنبرة مختلفة.

فتح باب مقصورته دون أن يطرق.

هي.

وقفت في المدخل مرتدية الزي الرمادي الخفيف الذي يُرتدى داخل المحطة، شعرها مربوط بإحكام، عيناها ضيقتان من قلة النوم.

– الطبيب قال إن الصداع يزيد بسبب الجاذبية الصناعية المنخفضة. لازم تأخذ إجازة على الأرض.

مدحت لم يلتفت. ظل ينظر إلى الأرض البعيدة.

– الأرض مزدحمة.

– والمريخ؟

هذه المرة التفت. رآها تنتظر جوابًا، يدها على إطار الباب كأنها مستعدة للانسحاب في أي لحظة.

– زوجتي تريد المريخ هذا العام. قالت إن الأرض لم تعد مفاجئة.

ضحكت ضحكة قصيرة بلا مرح.

– زوجتك دائمًا تريد شيئًا مختلفًا.

لم يرد. كانت هذه الفتاة، التي تعمل في قسم الاتصالات، أصغر منه باثني عشر عامًا. كانت تتحدث إليه منذ أشهر بطريقة تجعل الصداع يهدأ قليلاً. لم يلمسها قط. لم يقل لها كلمة صريحة. لكن الفكرة كانت موجودة، ثقيلة وهادئة، مثل نيزك يدور في مدار ثابت وينتظر اللحظة المناسبة ليدخل الغلاف الجوي.

بعد أن خرجت، جلس على السرير الضيق وفتح شاشة المعصم. حجز تذكرتين على سفينة الركاب «ابن سينا» المتجهة إلى مستعمرة المريخ الأولى. تذكرة له وتذكرة لزوجته. لم يحجز للفتاة. ليس بعد.

في المساء نفسه، بينما كانت المحطة تدور ببطء حول الأرض، كتب رسالة قصيرة لم يرسلها:

«أنا لست قاتلًا بعد. لكنني أحسب المسافات.»

ثم مسحها.

الصداع عاد أقوى. هذه المرة لم يشكُ لأحد. ارتدى زي الفضاء الاحتياطي الذي يحتفظ به في خزانته الشخصية، وتأكد أن عبوة الأكسجين ممتلئة تمامًا. ثم خلع الزي وأعاده إلى مكانه بعناية، كأن شيئًا لم يحدث.

في الخارج، كانت النجوم ثابتة. وفي داخله، كان شيء ما قد بدأ يتحرك.

الفصل 2

كانت سفينة الركاب «ابن سينا» أكبر مما تخيل.

ثلاثة طوابق من الممرات البيضاء اللامعة، نوافذ شفافة تمتد بطول الهيكل، وردهة رئيسية واسعة في المنتصف تحتوي على أرائك جلدية وزجاج مقوى يطل على الفضاء المفتوح. ركب مدحت وزوجته في اليوم المحدد، ضمن مجموعة من مئتي راكب معظمهم موظفون في المستعمرات أو سياح أثرياء يبحثون عن إجازة مختلفة.

عند بوابة الصعود، وقفت مضيفة فضائية مبتسمة وطلبت من الجميع ارتداء أزياء الطوارئ. الزي الفضائي الكامل كان إجباريًا خلال مرحلة الانطلاق الأولى، حتى يستقر المسار ويُعلن عن إمكانية خلعه. مدحت ارتدى الزي ببطء متعمد، يدّعي أن الصداع يمنعه من الحركة السريعة. زوجته ساعدته في إغلاق الأختام عند الرسغين والعنق، ثم نظرت إليه بامتعاض.

– دائمًا نفس الحكاية. لو استشرت طبيبًا حقيقيًا بدل الاعتماد على المسكنات…

لم يرد. ابتسم ابتسامة باهتة وتركها تسبق إلى الردهة الرئيسية مع باقي الركاب. هو توجّه إلى مقصورتهما الصغيرة في الطابق السفلي، وأغلق الباب خلفه.

جلس على السرير الضيق وانتظر.

من خلال الشاشة الصغيرة على الجدار رأى إجراءات الإقلاع: انفصال السفينة عن المحطة، اندفاع المحركات الأيونية، ثم الصمت الثقيل الذي يلي الدخول إلى المسار الحر. بعد سبع وأربعين دقيقة أُعلن عبر المكبرات أنه يمكن خلع أزياء الطوارئ. سمع ضحكات وخطوات في الممرات. زوجته لم ترجع. كانت تفضل الجلوس في الردهة الرئيسية مع الآخرين، تتحدث عن المريخ وعن المنازل القبابية وعن «حياة جديدة».

مدحت ظل في المقصورة.

فتح الحقيبة الشخصية التي حملها معه من المحطة. أخرج منها قطعة معدنية صغيرة مستديرة بحجم قبضة اليد، ملفوفة بعناية في قماش عازل. وضعها جانبًا. ثم أخرج عبوة أكسجين إضافية، فحص مؤشرها، وأعادها إلى مكانها. بعد ذلك خلع زي الفضاء تمامًا وعلّقه على الحامل المخصص، لكنه ترك الخوذة والقفازات في متناول يده.

في الساعة الثالثة بعد الإقلاع، خرج إلى الممر. سار ببطء نحو الردهة الرئيسية. الركاب كانوا قد استقروا: بعضهم يشرب مشروبات معبأة، وآخرون يحدقون من النوافذ في سواد الفضاء. زوجته كانت جالسة على أريكة قريبة من الزجاج المقوى، تتحدث مع امرأة مسنة. لم تلاحظه.

عاد إلى مقصورته.

أضىء ضوء أحمر صغير فوق الباب يشير إلى أن السفينة دخلت مرحلة الطيران المستقر. الآن يمكن للمرء أن يتحرك بحرية. مدحت أغلق عينيه لحظة، ثم فتحها ونظر إلى القطعة المعدنية المستديرة التي تركها على السرير.

كان الوقت لا يزال مبكرًا.

لكن الحسابات بدأت.

الفصل 3

كان الصمت هو أول ما شعر به.

ليس صمت المحطة أو صمت الفضاء العادي، بل صمت مفاجئ وكثيف، كأن الهواء نفسه قد توقف عن الوجود. انطفأت الأنوار في المقصورة دفعة واحدة، ثم عادت بعد ثانيتين باهتة ومضطربة من المولد الاحتياطي. مدحت كان قد ارتدى زي الفضاء بالكامل قبل دقائق. الخوذة مغلقة، القفازات محكمة، وعبوة الأكسجين تعمل بانتظام هادئ في أذنه.

تحرك في الظلام نحو الباب. فتحه بصعوبة بسبب فرق الضغط الطفيف الذي بدأ يتشكل في الممرات. خرج إلى الرواق الرئيسي. سمع في البداية أصواتًا بعيدة: ضحكات متقطعة، صوت امرأة تصرخ مرة واحدة ثم تصمت، ثم لا شيء.

اندفعت السفينة فجأة إلى الأمام بقوة عنيفة، كأن يدًا عملاقة دفعتها من الخلف. تمسك مدحت بالجدار المغناطيسي حتى استقرت. ثم سار بخطوات بطيئة ومدروسة نحو الردهة الرئيسية.

الضوء كان كاملًا هناك، قادمًا من النوافذ الشفافة التي ما زالت سليمة في معظمها. لكن الهواء... الهواء لم يعد موجودًا.

رأى الأجساد.

كانت تطفو في الفراغ الداخلي للردهة، بعضها ملتصق بالأرائك الجلدية بفعل بقايا الجاذبية الصناعية الضعيفة، وبعضها الآخر يدور ببطء في الهواء الفارغ. الوجوه منتفخة، العيون مفتوحة، الأيدي ممدودة في أوضاع غريبة. زوجته كانت من بينهم. رآها من بعيد، وجهها مقلوبًا إلى الأسفل، شعرها منتشرًا كالضباب.

لم يقترب.

سار عبر الردهة بخطوات حذرة، يتجنب الأجساد الطافية، حتى وصل إلى الجانب الآخر. هناك رأى الفتحة. الزجاج المقوى الذي كان يحيط بالردهة قد تهشم في جزء منه، والفضاء الأسود يحدق من الخارج مباشرة. قطع صغيرة من الحطام والزجاج كانت لا تزال تتحرك ببطء نحو الفراغ.

مدحت وقف ينظر لحظة طويلة. ثم ابتعد.

بدأ يفتش السفينة غرفة غرفة، ممرًا ممرًا. لم يجد أحدًا يتنفس. كل المقصورات، غرفة القيادة، قسم المحركات... فارغة إلا من الموتى الطافين. عاد أخيرًا إلى الردهة الرئيسية وجلس على الأرض المعدنية قرب بوابة الدخول المغلقة، ظهره إلى الجدار.

انتظر.

مرّت ساعات. عبوة الأكسجين الأولى انتهت، فاستبدلها بالثانية التي أحضرها معه. الصوت الوحيد الذي كان يسمعه هو تنفسه المنتظم داخل الخوذة، وصوت المعدن البارد وهو يتمدد وينكمش مع تغير درجات الحرارة.

في لحظة ما، حطّم بيده الكرة الحمراء الصغيرة التي تطلق إشارة الاستغاثة الآلية. الضوء البرتقالي بدأ يومض على لوحة الطوارئ.

ثم جلس من جديد، ينظر إلى الأجساد الطافية حوله، وينتظر أن يأتي أحد من محطة الفضاء القريبة أو من دورية الإنقاذ.

الوقت كان يمر ببطء شديد. والصمت كان أكمل مما تخيل أي إنسان.

الفصل 4

عندما فتحت بوابة السفينة أخيرًا، دخل ثلاثة رجال بزي الإنقاذ الأبيض. رأوا مدحت جالسًا على الأرض قرب الباب، لا يزال مرتديًا زي الفضاء الكامل، الخوذة مغلقة. أشار إليهم بيده ببطء. نقلوه إلى مركبة الإنقاذ دون أن يسألوه شيئًا كثيرًا في البداية. كان يبدو منهكًا، ووجهه شاحبًا خلف الزجاج الشفاف.

بعد ساعات، في محطة الفضاء «البيروني»، جلس في غرفة بيضاء صغيرة أمام رجل يرتدي زيًّا رسميًا رماديًا. كان الرجل في منتصف العمر، شعره قصير، وعيناه ثاقبتين بهدوء مزعج. على الطاولة بينهما جهاز تسجيل صغير وشاشة تعرض صورًا من داخل السفينة «ابن سينا».

قال المحقق بصوت هادئ:

– أنا المسؤول عن التحقيق الأولي. اسمي غير مهم الآن. أريد أن أسمع روايتك لما حدث، من البداية.

مدحت نظر إلى يديه. كانتا trembles قليلًا رغم أنه خلعهما من القفازات منذ وقت.

– كنا في طريقنا إلى المريخ... إجازة. زوجتي وأنا. بعد الإقلاع بيومين تقريبًا، شعرت بصداع نصفي شديد. لذلك ارتديت زي الفضاء مبكرًا وذهبت إلى مقصورتي. الباقون ظلوا في الردهة الرئيسية.

توقف لحظة، ثم تابع:

– فجأة انطفأت الأنوار. عرفت أنه انقطاع في الطاقة الرئيسية. هذا يحدث أحيانًا. انتظرت المولد الاحتياطي. ثم حدثت هزة عنيفة... اندفاع مفاجئ. خرجت إلى الممر.

سمعت أصواتًا في البداية، ثم صمتًا كاملًا. عندما وصلت إلى الردهة... رأيتهم جميعًا... طافين.

المحقق كان يكتب شيئًا على لوحة إلكترونية صغيرة دون أن يرفع عينيه.

– هل رأيت النيزك؟

– نعم. بعد أن تأكدت أنه لا أحد على قيد الحياة، عدت إلى الردهة. كان مغروسًا في إحدى الأرائك. والزجاج حول النافذة محطم. الهواء خرج كله...

– وزوجتك؟

مدحت أطرق برأسه.

– كانت بينهم.

صمت طويل. المحقق رفع عينيه أخيرًا وحدّق في وجه مدحت.

– أنت مهندس أنظمة طاقة في محطة «أحمس». صحيح؟

– نعم.

– وهل حاولت إصلاح المولد الرئيسي بعد الحادث؟

مدحت تردد ثانية واحدة فقط.

– حاولت... لكن الوضع كان خطيرًا. فضلت إطلاق إشارة الاستغاثة والانتظار.

المحقق أومأ برأسه ببطء، كأنما يوافق. ثم قال بصوت أكثر هدوءًا:

– سنحتاج إلى تفاصيل أكثر غدًا. الآن ارتج. لقد مررت بتجربة... شاقة.

مدحت خرج من الغرفة وهو يشعر أن عيني المحقق ما زالتا تتابعانه حتى بعد إغلاق الباب. في الممر الضيق، توقف لحظة وأسند ظهره إلى الجدار البارد.

الرواية كانت متماسكة.

لكن شيئًا ما في نظرة الرجل جعله يدرك أن الأسئلة الحقيقية لم تبدأ بعد.

الفصل 5

في اليوم التالي، كانت الغرفة نفسها، لكن الطاولة أصبحت مليئة بالشاشات والملفات الإلكترونية. المحقق لم يبتسم هذه المرة. جلس ومدحت أمامه، وبينهما صمت ثقيل قبل أن يبدأ الكلام.

– راجعت تسجيلات السفينة وأنظمة المراقبة. هناك أمور... لا تتوافق مع روايتك.

مدحت حافظ على هدوئه الظاهري. وضع يديه على ركبتيه كي لا تُرى الرجفة الخفيفة.

– النيزك موجود. الزجاج محطم. الهواء خرج. ما الذي لا يتوافق؟

المحقق لم يجب مباشرة. فتح شاشة وأظهر رسمًا بيانيًا لعبوات الأكسجين.

– كل زي فضاء يحمل عبوة تدوم ساعة واحدة بالضبط في وضع الطوارئ الكامل. أنت أطلقت إشارة الاستغاثة في الساعة الخامسة وسبع دقائق. التقطناك في العاشرة وتسع وخمسين دقيقة. هذا يعني أنك قضيت نحو ست ساعات داخل الزي. لو كنت قد ارتديته لحظة الانفجار فقط، لكنت على وشك انتهاء العبوة السادسة. لكنك كنت تستخدم العبوة السابعة. كيف تفسر ذلك؟

مدحت ابتسم ابتسامة قصيرة، كمن يحاول أن يبدو مرتاحًا.

– أنا... معتاد على الأكسجين النقي أكثر من غيري. أخذت عبوة إضافية من محطة «أحمس» قبل الرحلة. أحيانًا أستخدمها حتى في الظروف العادية. الصداع... يجعلني أحتاج هواء أنقى.

المحقق حدّق فيه لحظة طويلة دون تعليق. ثم غيّر الشاشة إلى صور لقطع الزجاج المقوى التي جُمعت من خارج السفينة.

– الشظايا. معظمها تناثر في الفضاء، لكن القليل الذي وجدناه يُظهر أن القوة جاءت من الداخل إلى الخارج. انفجار داخلي، لا اصطدام نيزك من الخارج. الزجاج المقوى في سفن الركاب يُصمم لتحمل الضربات الخارجية، لا الضغط الداخلي المفاجئ بهذا الشكل.

مدحت شعر بجفاف في حلقه. ابتلع ريقه قبل أن يرد.

– ربما كان النيزك يحمل سرعة غير عادية. أو أن هناك ضعفًا في نقطة معينة من الإطار. هذه الأشياء تحدث.

– وهل حدث أيضًا أن عطّلت المولد الرئيسي بنفسك بعد الحادث؟ التسجيلات تُظهر أن المولد توقف بطريقة يدوية، لا بسبب العطل التلقائي. وأنت المهندس الوحيد الذي كان يرتدي زي الفضاء في تلك اللحظة، والقادر على الوصول إلى غرفة المحركات دون أن يختنق.

الصمت هذه المرة كان أثقل. مدحت نظر إلى الشاشة ثم إلى عيني المحقق. لم يعد الرجل يبدو هادئًا. كانت عيناه ثابتتين، باردتين، كأنهما تحسبان كل كلمة قبل أن تخرج.

– أنت تفكر بسرعة عادةً، أليس كذلك؟ لكن هذه المرة... تأخرت قليلًا في بعض التفاصيل.

مدحت لم يرد. شعر أن الغرفة أصبحت أضيق، وأن الهواء الذي يتنفسه الآن أقل نقاءً من أكسجين الزي الفضائي الذي ارتداه قبل أيام.

المحقق أغلق الشاشات واحدة تلو الأخرى ببطء متعمد، ثم قال بصوت منخفض:

– سنكمل غدًا. هناك المزيد.

عندما خرج مدحت هذه المرة، لم يسند ظهره إلى الجدار. سار في الممر بخطوات أسرع مما يجب، وهو يدرك أن الرواية بدأت تتصدع، وأن المحقق يعرف ذلك تمامًا.

الفصل 6

في الجلسة الثالثة لم يعد هناك ملفات جديدة على الطاولة. المحقق جلس في صمت أطول من المعتاد، يحدق في مدحت كأنما ينتظر أن ينهار الجدار الأخير من تلقاء نفسه.

مدحت كان شاحبًا. النوم لم يأته في الليلة السابقة. الصداع الذي اعتاد أن يستخدمه كذريعة عاد هذه المرة حقيقيًا وقاسيًا.

قال المحقق أخيرًا، بصوت هادئ كأنه يتحدث عن الطقس:

– القطع الأخيرة وصلت. الزجاج، مسار القوة، توقيت إيقاف المولد، وحتى الحسابات التي أجريتها على الكمبيوتر الشخصي قبل الرحلة بأيام. كلها تشير إلى شيء واحد.

مدحت رفع رأسه ببطء. للحظة بدا كأنه سيكرر الرواية القديمة، ثم تنهد طويلاً وترك كتفيه يهبطان.

– نعم.

كلمة واحدة. سقطت في الغرفة كحجر في بئر عميق.

المحقق لم يتحرك. انتظر.

مدحت تابع بصوت أجش، كمن يتحدث إلى نفسه أكثر مما يتحدث إلى الرجل أمامه:

– زوجتي... كانت عصبية دائمًا. شجار يومي، اتهامات، صمت طويل ثم انفجار. أنا لم أعد أحتمل. لست صغير السن لأعيش هكذا حتى النهاية. وعندما أصرت على إجازة المريخ... رأيت الفرصة. هناك فتاة أخرى. أصغر. هادئة. كنت أفكر فيها منذ أشهر. لم ألمسها، لكن الفكرة كانت كافية.

توقف. مرر لسانه على شفته الجافة.

– خططت. حسبت كل شيء. أردت أن تبدو كحادث. نيزك، انقطاع طاقة، خطأ في أنظمة الحماية. اعتقدت أنني غطيت كل الاحتمالات.

المحقق أومأ برأسه مرة واحدة فقط، كأن الاعتراف كان متوقعًا منذ الجلسة الأولى.

– الجريمة شبه كاملة. لكنها لم تكتمل. لأنك اهتممت بحياتك أكثر مما يجب، فارتديت الزي مبكرًا، وتركت أثرًا في الأكسجين، وفي اتجاه القوة، وفي كل التفاصيل الصغيرة التي لا يلاحظها إلا من يبحث عنها.

مدحت نظر إلى يديه. كانتا هادئتين الآن، كأن الاعتراف أفرغهما من التوتر.

– هل هذا يكفي؟

المحقق ضغط على زر أحمر صغير في جانب الطاولة. بعد ثوانٍ قليلة فتح الباب ودخل رجلان بزي الأمن.

قال المحقق وهو ينهض:

– خذوه. سيُحاكم على كوكب الأرض. جريمة قتل جماعي مع سبق الإصرار.

مدحت وقف دون مقاومة. بينما كان يمر عبر الباب، التفت لحظة أخيرة إلى المحقق وقال بصوت منخفض:

– ظننت أنني سأنجو.

المحقق لم يرد. اكتفى بالنظر إليه حتى اختفى في الممر.

الفصل 7

نقلوه في مركبة مغلقة بلا نوافذ.

لم يرَ الأرض من الخارج، لكن الإحساس بالجاذبية الكاملة عاد تدريجيًا، ثقيلًا ومزعجًا بعد سنوات الجاذبية الصناعية الخفيفة في المحطات. عندما فتحت الأبواب كان في مبنى رمادي ضخم على أطراف مدينة كبيرة. لا لافتات، لا بشر في الممرات، فقط أبواب معدنية تفتح وتغلق بصمت كهربائي.

أدخلوه زنزانة مربعة بيضاء. لا سرير حقيقي، بل لوح معدني بارز من الجدار. لا نافذة. في منتصف السقف صندوق أسود صغير معلق، عديم الملامح، يصدر أحيانًا صوت طنين خافت.

بعد ساعات، أو ربما يوم كامل (الوقت هنا بلا معنى)، أضيء الصندوق الأسود فجأة. خرج منه صوت آلي هادئ، بلا نبرة بشرية:

– مدحت سالم. رقم القضية 22-7741-ج. جريمة قتل جماعي مع سبق الإصرار والترصد. عدد الضحايا: مئتان وسبعة عشر. بما في ذلك زوجتك.

مدحت جلس على اللوح المعدني ورفع رأسه نحو الصندوق.

الصوت تابع دون انتظار رد:

– السجلات الشخصية، التاريخ المهني، الفحوصات النفسية السابقة، وأنماط السلوك خلال السنوات الخمس الماضية... كلها قيد المراجعة الآلية. الروبوتات القضائية ستصدر التوصية الأولية خلال اثنتين وسبعين ساعة أرضية.

صمت قصير، ثم أضاف الصوت نفسه، كأنما يقرأ من نص قديم محفوظ:

– في هذا العصر لم يعد الإعدام التقليدي معمولًا به. بعد الحروب النووية والفوضى التي تلتها، أُلغي. البديل هو النفي الزمني أحادي الاتجاه إلى الماضي. الوجهة تُختار بما يتناسب مع فظاعة الجريمة.

مدحت حاول أن يتكلم:

– أريد محاميًا... أو إنسانًا على الأقل.

الصندوق لم يرد. الطنين عاد، ثم انقطع الضوء داخله. الغرفة عادت بيضاء وصامتة تمامًا.

جلس مدحت ساعات طويلة يحدق في السقف. تذكر وجه زوجته الطافي، وتذكر الفتاة التي لم يلمسها قط، وتذكر اللحظة التي ضغط فيها على الزر في غرفة المحركات. كل شيء بدا الآن بعيدًا وباردًا، كأن شخصًا آخر هو من فعله.

في لحظة ما، همس لنفسه:

– كانوا يختارون الماضي كعقاب... أي ماضٍ يختارونه لشخص مثلي؟

لم يأته جواب. الصندوق الأسود ظل مظلمًا، والزنزانة ظلت بيضاء، والوقت ظل يمر بلا علامات.

الفصل 8

في اليوم التالي أضاء الصندوق الأسود من تلقاء نفسه، دون أن يطلب أحد.

الصوت الآلي جاء أوضح هذه المرة، وأطول، كأن الشريط المبرمج منذ مئة وخمسين عامًا قد وصل إلى الجزء الذي لا يتغير أبدًا:

– لقد أُلغي حكم الإعدام في أوائل القرن الحادي والعشرين، عقب الحرب النووية والفوضى الهمجية التي سادت بعدها. لكن القتلة ظلوا موجودين. والسجن لفترات

طويلة لم يعد مقبولًا... كان عبئًا على المجتمع. لذلك وصل المسؤولون في النهاية إلى اكتشاف وسيلة السفر عبر الزمن.

مدحت كان مستلقيًا على اللوح المعدني، عيناه مفتوحتان على السقف. لم يتحرك.

الصوت تابع بلا توقف:

– السفر إلى المستقبل مستحيل. أما السفر إلى الماضي فممكن... في اتجاه واحد فقط. الرجوع إلى الحاضر من الماضي يعني سفرًا إلى المستقبل، وهو ما لا تسمح به القوانين الفيزيائية المعروفة. ولهذا السبب فإن النفي الزمني أصبح وسيلة لتطهير المجتمع من أولئك الذين أثبتوا عدم جدارتهم بأن يكونوا أفرادًا فيه.

صمت قصير محسوب، ثم عاد الصوت بنبرة أكثر حدة بقليل، كأنها مبرمجة لتزيد التأثير النفسي:

– الفترة الزمنية تُختار بما يتناسب مع الجريمة. هناك عصور هادئة نسبيًا... يُرسل إليها أصحاب الجرائم الأصغر. أما الجرائم الفظيعة... فتُختار لها أزمنة تكون بحد ذاتها عقابًا. الحق والعدل يقتضيان ذلك.

مدحت رفع رأسه أخيرًا.

– إلى أين سترسلونني؟

الصندوق لم يجب. استمر في سرد النص القديم كأن السؤال لم يُطرح:

– في حالتك بالذات، نظرًا لطبيعة الجريمة وعدد الضحايا وسبق الإصرار... لن نخبرك مسبقًا بالوجهة. لا بالزمان ولا بالمكان. ستُوضع في آلة الزمن وأنت مخدَّر. وعندما تستيقظ ستجد نفسك في الماضي، مع ذكرياتك كاملة، وملابس العصر، ولغته الأساسية محملة في ذهنك. أما الباقي... فستكتشفه بنفسك.

انقطع الصوت فجأة. الضوء داخل الصندوق انطفأ. الغرفة عادت إلى بياضها الصامت.

مدحت جلس على حافة اللوح، يديّه مقبوضتين. كان يعرف الآن أن الحكم قد صدر تقريبًا، وأن ما تبقى ليس سوى إجراءات شكلية. تذكر بومبي التي قرأ عنها مرة في طفولته، والبراكين، والحروب القديمة، والكوارث الطبيعية. أيّها سيكون؟

همس في الفراغ:

– أنتم لا تقتلونني... أنتم ترمونني فقط.

لم يأته صدى. الصندوق الأسود ظل مظلمًا، والزنزانة ظلت تنتظر الساعة التي سيُنقل فيها إلى الآلة.

الفصل 9

في الساعة المحددة فُتحت الزنزانة دون صوت.

رجلان آليان – أو ربما روبوتان بأجساد بشرية الشكل – أمسكا بذراعيه بلطف ميكانيكي وقاداه عبر ممر طويل أبيض. لم يتحدثا. لم ينظرا إليه. أوصلاه إلى قاعة دائرية واسعة، جدرانها ملساء بلا نوافذ، وفي وسطها منصة مرتفعة يقف عليها صندوق أسود أكبر من الذي في الزنزانة، محاط بعدة أذرع معدنية رفيعة.

عندما استقر مدحت على المقعد المعدني الوحيد المواجه للمنصة، أضاء الصندوق الكبير. تحول الصوت هذه المرة من التسجيل القديم إلى نبرة مباشرة، أكثر رسمية، كأنها تصدر عن قاضٍ آلي حي:

– مدحت سالم. بعد مراجعة كاملة للسجلات والأدلة والاعتراف... ثبتت إدانتك. جريمة قتل جماعي مع سبق الإصرار والترصد. مئتان وسبعة عشر ضحية. لا نظير لها في سجلات هذا القرن من حيث التخطيط والتنفيذ والبرود.

صمت قصير. الأذرع المعدنية تحركت قليلاً كأنما تضبط شيئًا غير مرئي.

– بما أن عقوبة الإعدام التقليدي أُلغيت منذ أكثر من مئة وخمسين عامًا، وبما أن السجن الطويل لم يعد خيارًا مقبولًا للمجتمع... فإن الحكم هو النفي الزمني أحادي

الاتجاه إلى الماضي. الوجهة – زمانًا ومكانًا – اختيرت بما يتناسب مع فظاعة الجريمة. لن تُبلغ بها مسبقًا. هذا جزء من العقاب.

مدحت حاول أن ينهض، لكن المقعد أمسك به مغناطيسيًا خفيفًا.

– أنا أعترف... لكن أريد أن أعرف إلى أين.

الصوت الآلي تجاهل السؤال تمامًا، وأكمل ببرود محسوب:

– ستُنقل فورًا إلى وحدة التهيئة. ستُحقن بمخدر آمن، وتُلبس ملابس مناسبة للعصر المختار، وتُحمَّل في ذهنك اللغة الأساسية لذلك العصر. عندما تستيقظ ستكون هناك... مع ذكرياتك كاملة، ولا شيء آخر من هذا الزمان. الرجوع مستحيل. هذا هو الحكم النهائي.

انطفأ الضوء داخل الصندوق الكبير فجأة. الأذرع المعدنية عادت إلى وضع السكون. الرجلان الآليان تقدما مرة أخرى وأمسكا بذراعيه.

بينما كانا يرفعانه من المقعد، نظر مدحت إلى الصندوق الأسود للمرة الأخيرة وهمس:

– أنتم لا تحكمون عليّ بالموت... أنتم تحكمون عليّ بأن أعيش موتي ببطء.

لم يأتِه جواب. القاعة عادت صامتة وبيضاء، وهو يُقاد نحو الباب الجانبي الذي يؤدي إلى وحدة التهيئة... وإلى الآلة التي ستأخذه إلى المجهول.

الفصل 10

الغرفة التي نقلوه إليها كانت أصغر وأكثر برودة.

في وسطها آلة مستطيلة رمادية اللون، بلا نوافذ، تشبه تابوتًا معدنيًا عموديًا مفتوحًا من الأمام. على جانبيها شاشات صغيرة تعرض أرقامًا وتواريخ غير مفهومة. روبوت واحد فقط كان ينتظر، بجسد نحيل ووجه أملس بلا ملامح.

قال الروبوت بصوت هادئ ومبرمج:

– اخلع ملابسك الحالية. ارتدِ هذه.

مدحت نظر إلى القطعة القماشية البسيطة التي مُدّت إليه: ثوب خشن بلون ترابي، وحذاء جلدي خفيف. ارتداها ببطء. كانت غريبة على جلده بعد سنوات الملابس الاصطناعية الملساء.

الروبوت أشار إلى الآلة:

– ادخل. قف في المنتصف. لا تقاوم الحقنة.

مدحت خطى إلى داخل الآلة. الباب المعدني انزلق خلفه بهدوء وأغلق. ضوء خافت أزرق أضاء من السقف الداخلي. شعر ببرودة المعدن تحت قدميه الحافيتين.

صوت الروبوت جاء الآن من مكبرات داخل الجدران:

– الحقنة ستُحقن الآن. المخدر آمن وسريع. عندما تستيقظ ستكون في الزمن المحدد. ذكرياتك ستبقى كاملة. اللغة الأساسية محملة. حظًا... إن كان للحظ مكان.

إبرة رفيعة لم يرها لمست عنقه من الخلف. شعور بارد وسريع انتشر في رقبته ثم صعد إلى رأسه. ركباه ارتختا قليلًا، فتمسك بجدار الآلة الداخلي.

آخر أفكاره جاءت متسارعة ومختلطة:

وجه زوجته الطافي في الردهة...

الفتاة التي لم يلمسها قط...

المحقق وعيناه الثابتتان...

الصندوق الأسود وهو يقول «لن نخبرك بالوجهة»...

ثم سؤال واحد دار في ذهنه قبل أن يظلم كل شيء:

«أي ماضٍ يستحق شخصًا مثلي؟»

الضوء الأزرق خفت.

الصوت انقطع.

والوعي انسحب ببطء، كمدّ ينحسر عن شاطئ فارغ.

عندما أغلقت عيناه تمامًا، كانت الآلة قد بدأت عملها في صمت مطلق.

الفصل 11

فتح عينيه على ضوء مختلف تمامًا.

ليس الضوء الأبيض البارد للمحطات، ولا الأزرق الخافت داخل الآلة. كان ضوءًا أصفر متربًا، يدخل من شقوق في سقف مهشم. الهواء ثقيل برائحة الغبار والدخان البعيد وشيء حامض لا يعرفه. رفع رأسه ببطء. كان مستلقيًا على أرضية إسمنتية متصدعة، داخل غرفة جدرانها متقشرة ورصاصية اللون، نافذتها مكسورة ومغطاة بقطعة قماش متسخة.

نهض بصعوبة. الملابس الخشنة التي ألبسوه إياها في المستقبل كانت ملتصقة بجسده من العرق. نظر إلى يديه، ثم إلى الحذاء الجلدي الغريب. كل شيء بدا ثقيلًا وواقعيًا أكثر مما ينبغي.

خرج من الغرفة إلى ممر ضيق مظلم. في نهايته باب موارب يطل على الخارج. دفعه ووقف على عتبة ما كان يومًا مدخل بناية سكنية.

الشارة أمامه لم تكن شارعًا بالمعنى الذي يعرفه. ركام، جدران مثقوبة، أسلاك متدلية، وسيارات محترقة مرمية على جانبي الطريق. في الأفق البعيد أعمدة دخان رفيعة ترتفع ببطء نحو سماء رمادية. أصوات بعيدة: طلقات متفرقة، صراخ غير واضح، وأذان من مسجد قريب ينقطع فجأة ثم يعود.

سار بضع خطوات. الناس الذين مروا به كانوا ينظرون إليه بعيون حذرة أو متعبة. ملابسهم مختلفة، وجوههم مغبّرة، وبعضهم يحمل أسلحة على أكتافهم بطريقة تبدو طبيعية هنا. حاول أن يسأل رجلًا مسنًا يجلس على كرسي بلاستيكي مكسور:

– أين هنا؟ أي سنة هذه؟

الرجل نظر إليه باستغراب، ثم أجاب بلهجة سورية واضحة، كلمات فهمها مدحت رغم غرابتها في أذنيه في البداية:

– حمص... سنة ألفين وإحدى عشر. وأنت منين يا ولد؟ لابس هاللبس الغريب؟

مدحت تجمد.

حمص. ألفين وإحدى عشر.

الأرقام سقطت في رأسه كأحجار. تذكر دروس التاريخ السريعة التي كانت تُدرّس في المدارس عن «اضطرابات الشرق الأوسط في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين». الحرب، الميليشيات، التدخلات، والانقسامات.

شعر بدوخة خفيفة. تراجع خطوة إلى الخلف ووقف يستند إلى الجدار المتصدع. الناس يمرون، الأصوات ترتفع وتنخفض، والرائحة الثقيلة تملأ رئتيه.

همس لنفسه، بصوت لا يكاد يُسمع:

– هذا هو الماضي الذي اختاروه لي...

ثم أدرك، بوضوح بارد، أنه لم يعد في المستقبل أبدًا. وأن الرجوع مستحيل.

الفصل 12

في الساعات الأولى حاول أن يبدو عاديًا.

سار في الشوارع المتضررة بخطوات بطيئة، يراقب كيف يتحرك الناس، كيف يتحدثون، كيف ينظرون إلى الغرباء. اشترى خبزًا يابسًا من رجل يبيع على رصيف

مكسور، ودفع بعملة ورقية وجدها في جيب الثوب الخشن الذي ألبسوه إياه. البائع أخذها دون تعليق، لكنه نظر إلى يدي مدحت النظيفة نسبيًا وإلى طريقته في الكلام.

جلس في ظل حائط مهدم وأكل ببطء. حوله كانوا يتحدثون عن «الوضع»، عن الطرق المقطوعة، عن جماعات جديدة وصلت إلى الحي، عن أخبار تأتي من دمشق أو من الخارج. كلمات مثل «الثوار» و«الجيش» و«الدعم» و«التكفير» كانت تتردد بكثرة. مدحت استمع دون أن يتدخل.

بعد الظهر اقترب من مجموعة صغيرة من الرجال يجلسون أمام دكان مغلق. سأل بلهدوء، محاولًا تقليد اللهجة قدر الإمكان:

– الأخوة... كيف الإنسان يقدر يمشي بأمان هنا؟ أنا... جاي من برّا، وضعتي معقدة شوي.

أحدهم، شاب نحيل بلحية خفيفة، رفع رأسه ونظر إليه بتمعن.

– من برّا منين؟ ولابس هاللبس ليش؟ حكيَك غريب.

مدحت تردد. ثم قال، محاولًا أن يبدو صادقًا دون أن يكشف الكثير:

– أنا... كنت عايش في مكان فيه نظام مركزي قوي. كل شيء مراقب، كل شيء محسوب. هنا... الوضع مختلف تمامًا. عم حاول أفهم.

الكلمات خرجت أخطر مما قصد. الرجلان الآخران توقفا عن الكلام. الشاب النحيل ضيّق عينيه.

– نظام مركزي؟ مثل مين؟ مثل النظام؟ أنت مع مين بالضبط؟

مدحت أدرك الخطأ فورًا. حاول أن يصحح:

– لا... أنا مش مع حدا. أنا بس... ضايع. ما بعرف البلد كويس.

لكن النظرة التي رماها عليه الرجال الثلاثة لم تعد نظرة فضول عادي. كانت نظرة وزن وتقييم. أحدهم همس لصاحبه شيئًا لم يسمعه مدحت، ثم وقف وقال بهدوء مصطنع:

– تعال معنا شوي. في ناس ممكن يساعدوك تفهم أكتر.

مدحت تردد. الغريزة التي بقيت معه من المستقبل كانت تقول له إن الرفض الآن أخطر من الموافقة. سار معهم عبر زقاق ضيق، بينما كان الظلام يبدأ في الهبوط على المدينة المتضررة، وهو يشعر أن كل خطوة تأخذه أبعد عن أي إمكانية للبقاء مجهولًا.

الفصل 13

الزقاق الذي ساروا فيه كان أضيق مما بدا في البداية.

الجدران على الجانبين مثقوبة ومتسخة، والأسلاك الكهربائية متدلية كحبال مقطوعة. الرجال الثلاثة لم يتحدثوا كثيرًا. الشاب النحيل كان يسير في المقدمة، والاثنان الآخران خلف مدحت مباشرة، قريبين بما يكفي ليشعر بأنفاسهما.

بعد دقائق وصلوا إلى مبنى قديم يبدو أنه كان مدرسة أو مقرًا حكوميًا صغيرًا. الحراسة عند الباب كانت واضحة: رجال بملابس مختلطة، بعضهم ملتحٍ، يحملون أسلحة بطريقة اعتيادية. أحدهم أوقف المجموعة وسأل بلهجة خشنة. الشاب النحيل همس له بضع كلمات، فأشار الحارس لهم بالدخول.

في الداخل كانت الردهة واسعة ومظلمة جزئيًا. رائحة العرق والغبار والدخان الكثيف. جلس مدحت على كرسي بلاستيكي مكسور كما طُلب منه. الرجال الذين أحضروه اختفوا لدقائق، ثم عاد أحدهم مع رجل أكبر سنًا، بلحية كثيفة وعينين حادتين.

الرجل جلس أمامه مباشرة وقال بصوت هادئ لكنه ثقيل:

– أنت مش من هون. لباسك غريب، حكيَك أغرب. قلت للشباب إنك جاي من مكان فيه «نظام مركزي». وضّح أكتر.

مدحت حاول أن يختار كلماته بعناية:

– أنا... مش مع النظام. ولا مع حدا. أنا بس وصلت لهون بالصدفة. ما بعرف تفاصيل البلد كويس.

الرجل لم يبتسم. أشعل سيجارة ونفخ الدخان نحو السقف المتصدع.

– الصدفة؟ في حمص سنة ألفين وإحدى عشر ما في صدفة. الناس عم تموت، والطرق مسكرة، وكل غريب بينحسب على حدا. في ناس قالت إنك ممكن تكون من بقايا الشبيحة، أو مخبر، أو جاي من برّا لمصلحة معينة.

من الخارج وصل صوت رجل آخر يرفع صوته في الممر:

– يقولوا إنه يحكي عن أنظمة مراقبة مركزية... زي اللي عند النظام. ويمكن يكون مؤيد لبشار.

الشائعة كانت أسرع من أي تفسير. مدحت شعر أن الجدران تقترب. حاول مرة أخرى:

– أنا مش سوري أصلاً... ولا ليبي. أنا من زمن تاني. بعرف إن الكلام هاد ما بينصدق، بس...

الرجل ذو اللحية الكثيفة رفع يده فقطع الكلام. نظر إلى من حوله وأومأ برأسه. خلال دقائق امتلأت الردهة بوجوه إضافية. همسات، نظرات، وكلمة «كافر» أو «خائن» مرت مرة أو مرتين في الهواء دون أن يوجهها أحد إليه مباشرة بعد.

في النهاية قال الرجل بهدوء نهائي:

– مناخدك لمكان تاني. في ناس أعلى لازم يسمعوا كلامك. وإذا كنت بريء... ربنا بيبين. وإذا لا...

لم يكمل الجملة. مدحت أُقيم من الكرسي وأُخرج من المبنى محاطًا بعدة رجال. الشارع الخارجي كان أظلم الآن، والمدينة بدت كأنها تتنفس بصعوبة تحت طبقة من الغبار والخوف.

بينما كان يُقاد عبر الأزقة، أدرك مدحت أن المستقبل الذي نفاه لم يختر له مجرد ماضٍ عنيف... بل ماضٍ يبتلع الغرباء بسرعة، ويحوّل أي كلمة غريبة إلى تهمة.

الفصل 14

المكان الذي نُقل إليه كان أعمق داخل الحي المتضرر.

غرفة واسعة في الطابق الأرضي من مبنى قديم، جدرانها مغطاة بكتابات متفرقة ولافتات باهتة. جلس مدحت على كرسي في الوسط، محاطًا بعدة رجال يقفون أو يجلسون في دائرة غير منتظمة. الضوء يأتي من مصباح كاشف واحد موجه نحوه، مما يجعل وجوه الآخرين في الظل جزئيًا.

الرجل ذو اللحية الكثيفة الذي استجوبه سابقًا كان موجودًا، وإلى جانبه شخص جديد يبدو أعلى رتبة: أكبر سنًا، صوته أهدأ، وعيناه أكثر برودة.

بدأ السؤال مباشرة:

– كرر اللي قلته من شوي. عن النظام المركزي. عن المراقبة. عن إنك من زمن تاني.

مدحت تنهد. كان يعرف أن الصمت أخطر، والكلام الصادق أخطر منه.

– أنا مش جاسوس ولا مؤيد لأحد. أنا جيت من مستقبل بعيد... من القرن التاني والعشرين. هناك في كمبيوترات بتراقب كل شيء، بتتنبأ بالجرائم، وبتحكم بالمجتمع بطريقة مركزية تمامًا. أنا ارتكبت جريمة هناك، ونفوني لهون كعقاب. بعرف إن الكلام هاد بيبان جنون، بس هاد اللي صار.

صمت ثقيل. أحد الرجال في الخلف ضحك ضحكة قصيرة ساخرة. آخر همس بصوت مسموع:

– مستقبل؟ كمبيوترات؟ هاد يا إما مخبر عم يلعب فينا، يا إما مجنون، يا إما كافر عم يحاول يضللنا.

الرجل الأكبر سنًا رفع يده بهدوء وأوقف الهمس. ثم قال لمدحت:

– في زمن الفتنة هاد، أي حدا بيحكي عن أنظمة مركزية ومراقبة كاملة بينحسب على النظام. وأنت حكيَك أغرب من العادة. كمان لباسك وطريقتك... كل شيء فيك غريب. نحنا شفنا ناس كتير حاولوا يختبوا وراء حكايات. بس الحكاية تبعتك... جديدة.

مدحت حاول مرة أخيرة، صوته يبحّ من الإرهاق:

– أنا مش مع بشار ولا ضدّه بالطريقة اللي بتفكروا فيها. ولا لي علاقة بقطر أو السعودية أو أي جهة برانية. أنا بس بدي أعيش... أو أفهم ليش انبعت لهون بالذات.

كلمة «قطر» و«السعودية» خرجت دون قصد، فزادت الهواء ثقلاً. أحد الجالسين تمتم:

– عم يحكي عن الدول الداعمة كأنه بيعرف تفاصيل. هاد مش كلام ضايع.

الرجل الأكبر أغمض عينيه لحظة ثم فتحهما. قال بهدوء نهائي:

– نحن ما منقرر لحالن. في مجلس وفي ناس أفقه منّا بالدين والسياسة. بس من هلق... أنت مش ضيف. أنت متهم. وخليك عارف إن التكفير مش كلمة بنرميها بسهولة... بس الشبهات عليك صارت كثيرة.

أُخرج مدحت من الغرفة بعد ذلك. لم يُمسّ بأذى جسدي في تلك الساعة، لكن العزلة كانت أشد. وُضع في غرفة صغيرة بلا نافذة، الباب يُقفل من الخارج، والصوت الوحيد الذي يسمعه هو خطوات الحراس وهمسهم المتقطع في الممر.

جلس على الأرض الباردة، ظهره إلى الجدار، وأدرك أن كل محاولة للدفاع كانت تُقرأ ضدّه. المستقبل الذي نفاه لم يرسله إلى كارثة طبيعية هذه المرة... بل إلى زمن يحوّل الكلمات نفسها إلى أدلة إدانة.

الفصل 15

الغرفة الصغيرة كانت بلا ساعة وبلا نافذة.

الضوء الوحيد يأتي من شق تحت الباب، خافت ومتقطع حسب حركة الأقدام في الممر. مدحت جلس أيامًا – أو ما بدا أيامًا – على الأرض الباردة، ظهره إلى الجدار المتقشر، يحصي الأنفاس ويحاول أن يرتب أفكاره.

في البداية ظل يكرر الرواية في رأسه، يبحث عن طريقة أفضل لصياغتها، عن دليل يمكن أن يقدمه. ثم توقف. أدرك أن أي دليل من مستقبله سيبدو هنا أكثر غرابة، وأن أي تفصيل إضافي عن الكمبيوترات المركزية أو النفي الزمني لن يفعل سوى تعميق الشبهة.

تذكر الصندوق الأسود في زنزانة المستقبل، والصوت الآلي وهو يقول: «الفترة الزمنية تُختار بما يتناسب مع الجريمة».

الآن فهم المعنى الحقيقي.

لم يرسلوه إلى بركان أو طاعون أو حرب قديمة بعيدة عن ذاكرته. أرسلوه إلى زمن قريب بما يكفي ليفهم لغته، وقاسٍ بما يكفي ليحوله أي غريب إلى متهم. زمن تكثر فيه الشكوك، وتُقرأ فيه الكلمات على غير قصدها، ويصبح فيه الانتماء أو عدمه مسألة حياة.

في إحدى الليالي – إن كان ليلًا – همس لنفسه:

– قتل مئتين وسبعة عشر شخصًا في سفينة فضاء... فأرسلوني إلى مكان يقتل فيه الناس بسبب كلمة أو شبهة أو خلفية.

الضحك الذي خرج منه كان خافتًا وجافًا. لم يكن ضحك سخرية من الآخرين، بل من نفسه. من الحسابات الدقيقة التي أجراها قبل الجريمة، من ثقته بأنه غطى كل الاحتمالات، من اعتقاده أن المستقبل الذي يدّعي الرقي يمكن أن يكون عادلًا حتى في عقابه.

الآن لم يعد هناك مستقبل.

الرجوع مستحيل. والآلة التي أحضرته لن تعود. والناس في الخارج يرونه إما مجنونًا أو خائنًا أو كافرًا أو الثلاثة معًا. والعزلة كانت تكتمل حوله ببطء، كجدار إسمنتي يُبنى حجرًا حجرًا.

أغلق عينيه. تذكر وجه زوجته الطافي، وتذكر الفتاة التي لم يلمسها، وتذكر المحقق وعينيه الثابتتين. ثم تذكر الجملة الأخيرة التي قالها القاضي الآلي: «هذا هو الحكم النهائي».

فتح عينيه في الظلام وشعر، للمرة الأولى بوضوح كامل، أن العقاب لم يكن النفي فقط... بل أن يفهم، قبل النهاية، لماذا اختير له هذا الماضي بالذات.

الفصل 16

الأيام التالية لم تعد تُحسب بالساعات.

الصوت في الممر تغيّر. الهمسات أصبحت أكثر تواترًا، والخطوات أثقل. أحيانًا كان يسمع نقاشات حادة خلف الباب، كلمات متقطعة عن «القرار» و«المجلس» و«الشبهة الكبيرة». لم يعد أحد يدخل ليسأله. الطعام – إن جاء – يُدفع من تحت الباب بصمت، ويُسحب الوعاء فارغًا دون كلام.

مدحت توقف عن المحاولة.

لم يعد يصرخ أو يطرق أو يطلب تفسيرًا. جلس معظم الوقت في الزاوية نفسها، يراقب الشق الضيق تحت الباب كأنه النافذة الوحيدة المتبقية على عالم يبتعد عنه. في رأسه كانت الصور تختلط: الردهة الفضائية والأجساد الطافية، الصندوق الأسود وهو ينطق بالحكم، الشارع الحمصي المهدم في أول يوم، والوجوه التي نظرت إليه كغريب ثم كمتهم.

في لحظة ما، سمع من بعيد صوت أذان ينقطع فجأة، ثم طلقات متفرقة، ثم صمت أطول من المعتاد. المدينة خارج جدرانه كانت تتنفس بصعوبة أكبر. الفوضى التي قرأ عنها في كتب التاريخ لم تكن مجرد كلمات بعد الآن؛ كانت الهواء الذي يتنفسه والجدار الذي يسنده.

أدرك بوضوح بارد أن الدائرة تُغلق.

لم يعد هناك مجال لشرح أو دفاع أو مصادفة تنقذه. النظام الذي نفاه من المستقبل اختار بدقة: زمنًا لا يرحم الغموض، ولا يترك للغريب مساحة رمادية. كل ساعة تمر كانت تقربه من نقطة لا رجوع منها، وهو يعرف ذلك دون أن يحتاج إلى من يخبره.

أغلق عينيه واستند برأسه إلى الجدار المتقشر.

للمرة الأولى منذ وصوله لم يسأل «لماذا أنا؟». السؤال تغيّر. أصبح: «كم من الوقت تبقى؟».

والجواب، في الصمت المحيط به، كان واضحًا بما يكفي.

الفصل 17

في الساعة التي شعر فيها أن كل شيء قد حُسم، لم يعد هناك خوف حاد.

كان الخوف قد استُنزف في الأيام السابقة، وبقي مكانه هدوء ثقيل وغريب. جلس مدحت في الزاوية نفسها التي اعتادها، ظهره إلى الجدار، يديه مستريحتين على ركبتيه. الأصوات في الممر كانت قد هدأت إلى همس بعيد، كأن القرار النهائي قد اتُخذ في مكان آخر، وهو ينتظر فقط أن يصل إليه.

راجع حياته للمرة الأخيرة، لا كدفاع، بل كحساب ختامي.

رأى نفسه في محطة «أحمس»، يتظاهر بالصداع ليبعد الناس. رأى السفينة «ابن سينا» والردهة الواسعة والزجاج المقوى. رأى الأجساد الطافية، ووجه زوجته، والساعات الطويلة التي انتظر فيها الإنقاذ وهو يعرف ما فعل. رأى المحقق وعينيه الثابتتين، والصندوق الأسود، والآلة الرمادية، ثم الضوء الأصفر المترب في حمص.

كل شيء كان متسلسلًا بدقة لم يلاحظها وهو يخطط.

همس في الصمت، بصوت بالكاد يسمع:

– قتلت مئتين وسبعة عشر شخصًا... فأرسلوني إلى زمن يموت فيه الناس بسبب كلمة أو شبهة أو انتماء متوهم.

لم يكن في الجملة مرارة حقيقية. كانت أقرب إلى الإقرار. تذكر النهاية الأصلية التي كان يمكن أن تكون له في بومبي تحت الرماد البركاني. هناك أيضًا كان العقاب متناسبًا: موت جماعي مقابل موت جماعي. هنا كان العقاب من نوع آخر، لكنه يحمل المنطق نفسه. النظام الآلي في المستقبل لم يخطئ في الحساب. اختار ماضيًا يبتلع المجرم بنفس القسوة التي أظهرها المجرم تجاه ضحاياه.

أغلق عينيه.

للحظة قصيرة رأى الفتاة التي لم يلمسها قط، ووجهها الهادئ. ثم اختفى الوجه. بقي فقط الإدراك الواضح والبارد الذي وصل إليه الرجل في بومبي قبل أن يغطيه الرماد:

أن كل من يرتكب جريمة... ينال، بطريقة ما، العقاب الذي يستحقه.

عندما فتح عينيه مجددًا، كان الضوء تحت الباب قد تغيّر. والخطوات في الممر كانت تقترب.

انتزع الارهابيون مدحت من زنزانته واخذوا يركلونه ويسبونه ويكفرونه وظلوا يضربونه ثم اخذوه وامروه بالقفز من فوق بناية تحت تهديد السلاح وحين قفز افرغوا فى جسده عشرات الرصاصات

الفصل 18

في القرن الثاني والعشرين، داخل قاعة المراقبة المركزية، أضاءت شاشة صغيرة لثوانٍ معدودة.

سجل آلي قصير ظهر ثم اختفى:

«قضية 22-7741-ج. مدحت سالم. نفي زمني أحادي الاتجاه نُفِذ بنجاح. الوجهة: الإحداثيات الزمنية والمكانية المحددة. لا إشارات عودة. الملف أُغلق.»

الروبوت القضائي المسؤول عن المتابعة سجّل الملاحظة في الأرشيف العام دون تعليق إضافي. النظام كان يعمل كما صُمم منذ أكثر من مئة وخمسين عامًا: الجرائم الكبرى تُعالَج بالنفي، والمجتمع يبقى «نظيفًا» من غير الجديرين.

في أحد الممرات البعيدة، مرّ محقق فضائي قديم – الرجل نفسه الذي استجوب مدحت في محطة «البيروني» – أمام شاشة عرض عامة. توقف لحظة، رأى الرقم الممحو، ثم تابع سيره. لم يسأل إلى أين أُرسل الرجل بالضبط. السؤال لم يعد مهمًا. الحكم كان نهائيًا، والآلة لا تخطئ في اختيار الماضي المناسب.

خارج المبنى، كانت الأرض تدور بهدوء تحت سماء صافية. المدن لامعة، والمحطات الفضائية تواصل عملها، وكمبيوتر «المعرفة» – أو ما تبقى من أنظمته – يواصل مراقبة الاحتمالات والتنبؤ بالجرائم قبل وقوعها.

في مكان ما من الماضي البعيد نسبيًا، كان رجل قد فهم أخيرًا معنى العقاب.

وفي المستقبل، استمر النظام يعمل...

يطهّر،

ينفي،

ويغلق الملفات واحدًا تلو الآخر.

النهاية.